- ١١ -

لِقَاءُ الأحِبَّةِ، والتِقَاءُ المشَاعِرِ

والآن يبدأ جمع الشمل وجمع الأسرة الكريمة أسرة النبوة والرسالة والملك، سوف يجتمعون جميعًا، يوسف عفا عن إخوانه جميعًا، تباكوا تعانقوا وبقي الوالدان، فخلع يوسف - عليه السلام - قميصه الذي عليه، وهذا أول المبشرات، ولبس قميصًا آخر، وقال: ﴿**اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا**﴾ من مصر إلى فلسطين، ﴿**فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي**﴾، أي: ضعوا القميص على وجه أبي، فإذا وضعتم قميصي بإذن الله يرد الله إليه البصر، ويدب النور في العينين، وهذه حكمة من الله، ومعجزة خالدة، وكرامة لهذا النبي العظيم عليه السلام، قال: ﴿**اذْهَبُوا بِقَمِيصِي**﴾، خلع قميصه الداخلي قميص النبوة الذي عليه، يقول بعضهم: فيها أرواح الجنة رائحة الجنة والله أعلم، هكذا فسره المفسرون قال: ﴿**فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا**﴾ لأنه ابيضت عيناه وعمي عليه السلام، حتى كان يبكي في البكاء، ويقول: ﴿**إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ**﴾، يأتي الجيران ويقولون له: تبكي في الليل، يقول: واأسفا على يوسف، كلما زاره ضيف إذا هو أعمى جالس يقول: واأسفا على يوسف، الذي عنده ابن ويكون ذكيّاً وبارًا وطاهرًا وفقيهًا وعالمًا ثم يذهب عنه في شبابه، ولا يدري أين ذهب كيف يعيش؟ كيف ينام؟ وكيف يرتاح؟ هذه هي المصيبة فبكى

وشكى إلى الله، قال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ فاستجاب الله دعوته، أخذ القميص معه، قال: إذا وصلتم إلى أبي فضعوا القميص إلى وجه قبل أن يأتيني ليراني بهذا البصر، لأني فقدته ومعه عينان، والآن ذهب نور بصره وأصبح أعمى يقاد، فإذا أتيتم بهذا العلاج، وعلاجه في رائحة قميصي، قال: يضع القميص على عينيه، ويشمه بأنفه، فسوف يرد الله البصر إليه بإذن الله، وهذا الذي حصل، قال: في الوصية الثانية - ثم أتوني بأهلي كلهم، والإخوان الآن اصطلحوا وسوف يتكلم يوسف بعد قليل ولن يُعَرَض للماضي، هذا الكريم دائمًا لا يعرض للتفاصيل، ونَسي لما وضعوه في البئر، وتهمة الذئب، ونَسي كل ما أتاه من مشقة، ويوم بيع في سوق الرقيق، ويوم أتته التهمة، ويوم أتاه التنكيل والحبس، ويوم أتته المعاناه نَسي هذا كله، وبدأ صفحة جديدة وهذا يفعله الكريم، قال: ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، يقولون: أرسل مئتي راحلة أي: مئتي جمل، وقال: احملوا الأهل جميعًا، وكانوا أكثر من سبعين ليجتمعوا بعد طول فراق، قيل: كان الفراق أربعين سنة الله أعلم، قال: تعالوا بهم جميعًا ليجتمع الشمل، وأحسن شيء في الحياة أن يجتمع شملك بأسرتك، حتى في الجنة إذا أراد الله أن يرضي الواحد منا نسأل الله من فضله قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ فلا يشتتهم -سبحانه وتعالى- في الجنة، قال: أتوني بأهلكم أجمعين.

ذهبت القافلة في ريف مصر ولما أشرفت على فلسطين وبقي مسافة قصيرة يقولون: سبع ليال، أو ثمان ليال أرسل الله ريحاً طيبة، هي ريح الصبا وهي صديقة للأنبياء، ذهبت رائحة الصبا برائحة يوسف -عليه السلام- وأنفاسه، ومِسْكُ قميص يوسف ورائحته وقعت على أنف يعقوب قبل أن يصل بثمان ليال، ﴿**قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ**﴾، يقول: والله وصل إلى أنفي ريح يوسف، ﴿**وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ**﴾، قيل: العير التي أرسلها من أرض مصر فصلت في مصر، أي: ذهبت من أرض العريش، اتجهت إلى فلسطين وعليها الجمالة والخيالة يريدون أخذ باقي الأهل، فوصلت رائحة الثوب «المسك» إلى يعقوب، فقال لأبنائه: الذين بقوا هناك ﴿**إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ**﴾، أو أخشى أن تسفهوني، وإلا أنا ما أنكرت شيئًا، وما خانني ظني، وما خانني يقيني، أخشى أنكم تفنّدون، أن تسفهوني أو تُجَّهلوني.

يقول: أنا قلبي هكذا، ولا تسفهوني، أو تقولوا إني هرمت، لكنني لم أجهل، ولم أسفه، وإنني علي عقل من الله وبصيرة وسوف تعلمون، كأنه يعتذر لأنهم سيستهزئون به فكيف بعد أربعين سنة الآن تذكرنا بيوسف؟ انتهينا من قصة يوسف، الآن أتى جيل جديد وضاعت القصة، وضاع الابن الثاني، لكن يأتي الخبر الآن وما يدري والله عمي عليه الخبر حتى يأتيه الخبر عن طريق الشم والقميص حكمة بالغة، قال: والله إن ريح القميص أصبح في أنفي سبع ليال فاقتربوا، قال الحضور الذين بقوا من أبنائه: ﴿**تَاللَّهِ إِنَّكَ**

﴿لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾، يقول والله إنك باقٍ في سفهك وولهك وهيامك بيوسف؛ لأنهم ما زالوا يجهلون يوسف عليه السلام، والله إنك ما زلت على طريقتك الأولى، ظننا أنك تبت وتركت الموضوع ونسيتهم مع الأيام، والآن تعيدنا إلى قصة يوسف، انتهينا من يوسف، لكن لن ينتهي من كان ينتظر فرج الله، وموعود الله لا ييأس؛ ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾، جاء البشير ودخل على يعقوب البيت، فلما قرب وضع القميص على وجه يعقوب، وفي لحظة واحدة أبصر يعقوب بإذن الله، فرد الله عليه بصره فإذا هو يرى كل شيء مثل ما خلقه الله:

فانجلى بصره، أي: ارتد بصره، قال يعقوب وهو يلتفت إلى أبنائه: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾، قال أهل العلم: ألم أقل لكم لا تيأسوا من روح الله ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾، ألم أقل لكم ﴿فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾؟ ألم أقل لكم ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾؟ ألم أقل لكم ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؟ كل هذه التنبؤات حصلت كفلق الصبح، وأنا أعلم من الله ما لا تعلمون، عندى علم من النبوه، ألم أخبركم أن الفرج قريب؟ أما أخبرتكم أنه سيعود إلينا يوسف ويعود أخوه، أما كنت أحدثكم أنه ستنجلي هذه الظلمة والغمة وسوف يأتي فجر اللقاء وفجر الفرح، وأعلم من الله ما لا تعلمون، قالوا: علم النبوة، وما كشف الله له من علم الغيب، وهو انتصار من يصبر ويتحمل حتى يأتيه الفرج من الله سبحانه وتعالى، أدرك أبناؤه أنهم أخطؤوا، وراجعوا حسابهم

وتذكروا أنهم كانوا سببًا في بكاء هذا الشيخ، وفي همه وغمه وحزنه وعماه وفرقة ابنه وما آتاه من لأواء وضنك.

قالوا: ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾، الآن عفا يوسف هناك في لحظة، قال: لا تثريب عليكم، لكن الشيوخ يتمهلون، ذكر ابن الجوزي في زاد المسير، قال عطاء الخرساني: من أراد حاجه فليطلبها من الشباب فإنهم يبادرون، والشيوخ يتفكرون ويتدبرون، ولذلك لما طلبوا قالوا: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾، قال: يوسف في لحظة ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾، ولما قالوا: ليعقوب استغفر لنا، قال: سوف أستغفر لكم، ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾، والله أسرفنا وأخطأنا وعصينا ربنا وأسأنا إليك، ولذلك استغفر لنا قال: سوف وليس الآن، سوف هذا حرف لما ينتظر من الزمان، قال: سوف أفعل ذلك لكن ليس الآن، لماذا أخر الاستغفار؟ قيل: لواحد من أسباب ثلاثة: إما لاختيار الزمن الذي يستجاب فيه الدعوة وقت السحر، قال: إذا أتى السحر استغفرت لكم. وقيل: في السحر لكن ليلة الجمعة. وقيل: في ساعة الاستجابة يوم الجمعة هذه الأوقات الثلاثة، أما الآن فلن أستغفر لكم، انتظروا، قال أهل العلم: إن يعقوب - عليه السلام- لبى طلب أبنائه، لكنه طلب الزمان الذي يكون أمكن وأحسن حتى يدعو الله، قيل: لمّا كان في السحر استغفر لهم جميعًا، وسأل الله أن يجمعه بيوسف وهذا الذي حصل؛ ولذلك قال أبناؤه له: ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾، ولم يقولوا: على تضييع يوسف، قالوا ليكون الخطاب أشمل وأعم لكل ما فعلوه من

الإساءة معه مع يوسف وأخيه وغير ذلك، وقالوا: أيضًا ليستروا المسألة لكي لا تُنكأ الجراح مرة ثانية: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

رجعت القافلة وأتى الشيخ الكبير يعقوب، قالوا: بلغ في تلك السنة خمسة وثمانين، وقيل بل مئة؛ لأنه توفي وهو ابن مئة وأربعة وعشرين سنة، وقيل: مئة، وقيل: أربعة وثمانين، إنما أتى مع القافلة، وقد أتو أكثر من سبعين، وقيل: ثمانين كل الحاشية والقافلة والظاهر هو وأمه؛ لأنه قال: آوى إليه أبويه، قالوا: خالته بدل أمه لأن أمه ماتت، وقيل الصحيح عند بعض المفسرين: أمه مع يعقوب فقربوا وخرج يوسف، ولكنه خرج خروج الفاتحين، خرج وهو نبي، خرج وهو ملك مصر، خرج وهو يدير خزائن مصر والكنوز والجيوش، قال خرج من الحراسة أربعة آلاف من القصر سبحان من يرفع من يشاء، يباع في سوق الرقيق، ويترك في الجب ما عنده عشاء ليلة، والآن يخرج من مصر وتطلب الدول كلها الميرة من عنده، والكسب من عنده، ويطلبون النفقة من عنده والميزانية من عنده عليه السلام، فيخرج ليقابل أباه، فلما رآه ترجل ونزل من على فرسه فرآه أبوه فترجل، قيل: فوضع فمه على جبين والده ثم بكيا فاحتضنا بعضهما فبكا الناس، وأخذ هذا الابن البار يضم والده النبي بيت النبوة والرسالة عليه السلام، فيتعانقان ويبكيان، فما ترك يوسف من قبلة حب إلا سلمها لأبيه وذاك لذلك، ثم سلموا على الأسرة ودخلوا القصر.

وارتفع هو على العرش عرش الحكم هذا أسلوب القرآن، ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾، قال: تفضلا؛ لأنهما أكبر من الوفد أحسن من الوفد، هم قادة الوفد، القافلة فأتى لوالده وضمه، والأم وضمها ورفعهم عنده، قال آوى إليه أبويه، وقال: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾، قيل: إنه آواه قبل أن يدخل إلى حدود مصر، وقال: ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين، قال: آمنين من كل خوف ومن كل فقر، ومن كل هم، اجتمع الشمل، وأتى الفرج، وحل السرور والحضور وتكاملت الأمور بقدرة من يسير الأمور جل في علاه، قال: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾، فدخلوا مصر وعليهم الأمان لا يخافون؛ لأنه هو - عليه السلام - آتاه الله القوة، وآتاه العزة، وآتاه السؤدد والمجد، ورفع أبويه على العرش، عرش المملكة يجلس عليه يوسف وكان مرتفعًا، فرفع أباه إكرامًا له بجانبه، وأمه بجانبه، فلما رفعهم جميعًا نزل الأب والأم والإخوة وخروا له سجدًا.

لماذا يسجدون؟ هل يجوز أن يُسْجَد لغير الله، السجود لا يكون إلا لله؟ قال: أهل العلم: هذا في شرع من قبلنا تعظيم وليس في شرعنا؛ لأنه نُسخ. وقالوا: إنهم ركعوا وخفضوا رؤوسهم تعظيمًا، وسمي سجودًا. إنما نأخذ على ظاهره، فهو جائز في شرعهم من التكريم، فلما بُعث ﷺ مُنع ذلك وجعل السجود لله؛ ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ﴾، وقال بعض العلماء: بل خروا سجدًا شكرًا لله ولكنها في بيته، فما سجدوا له، بل سجدو لله هذا من المخارج التي ذكرت فالله أعلم، المقصود تمت الرؤيا، أما قال

في أولها: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾، أحد عشر الآن إخوانه والشمس والقمر أبوه وأمه كلهم أتوا أمامه وهو على العرش فخروا له سجدًا فتبسم قال: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾، انظر يا أبت كيف دار التاريخ، واستدار الزمان، وأتت الليالي، وتحققت الصور، ألا تذكر يا أبت وأنا طفل كلمتك وقلت: لي لا تخبر إخوتك وأخبرتهم فكانت عليَّ مصيبة ونكاية، أما رأيت كيف استدار الزمان حتى بلغنا الله - سبحانه وتعالى- هذا الوقت فهذا هو التأويل، هذه حقيقة ما عرفنا الله -سبحانه وتعالى- به، أما أخبرتني أنت بتفسير هذه الرؤيا فهذه هي الحقيقة وقعت الآن ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾، ثم أتى الآن يذكر جميل الله عليه وإحسانه عليه فكانت كلها في صالح يوسف ويعقوب، فحصل له من الصبر والرفعة وتكفير الخطايا والذكر الحسن في الناس، وصاروا مثلاً للتحمل، ونالوا من الملك وصاروا معبرين للرؤى، واجتمع شملهم، وصاروا يوزعون على الناس الأطعمة والأرزاق والمال، قال: ﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾، لم يقل: من الجب لأن إخوانه هم الذين ورطوه في الجب، فنسي وحذف تلك الفقرة وقفز هذه المواقف تركها وأتى فقال: ﴿إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾ ترك كل الأمور صدف عنها وسامح عليه السلام، وجاء بكم من البدو بالنسبة إلى مصر كالبادية كالقرى؛ لأنها مجاورة كانت مصر في تلك هي الحاضرة للناس، كان فيها

علوم وأمم وثقافة صارت هي الحاضرة، وصارت هي العاصمة في تلك الفترة الزمنية، قال: ﴿وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾، الآن حَمَّلَ الشيطان هذه القطيعة وهو الصحيح، قال أهل العلم: فلله دره - عليه السلام - كيف تلطف إلى أن أتى في المسألة بأبهى صورها، وقال: ﴿مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾، كأنه طرف وهم طرف يقول: اختلفنا نزغ الشيطان بيننا أنا وأياهم، دخل علينا الشيطان أنا وهم من باب اللطف حتى يبين المسألة أن فيها اشتراك، وأن الخطأ لا يسلم من أحد، ولم يقل: هم المخطئون الوحيدون وهم المسيئون وحدهم، قال: ﴿مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ هو الذي تدخل بيننا ونحن إخوة وأحباب، لكن الشيطان قاتله الله وأعوذ بالله منه، هو الذي دخل بيننا هو الذي أفسد المودة بيننا فصار الآن المخطئ، وصار الجميع متساوين عنده في ظاهر الخطاب، ولو أن المعني يوسف هو المصاب والمظلوم والمعتدى عليه عليه السلام، قال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾، اللطيف هو الذي يوقع القضاء والقدر بألطف الحيل، وأرق الأسباب، وألين الأساليب، هو الذي يَنْفذ قضاؤه وقدره بلطف، الآن اجتمعوا أتى الشيخ، وتم الاتفاق والمسامحة والمغفرة بحمد الله.

ولما علم يوسف أن ما بعد الاجتماع إلا الفراق، وما بعد الانتصار إلا الانتهاء قال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ

﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾، هنا توجه إلى الواحد الأحد، قال: توفني مسلمًا، أمنيتك الخالدة الصحيحة أن يتوفاك مسلمًا أسأل الله أن يتوفانا مسلمين؛ لأن القلوب بين أصبعين من أصابع الله عز وجل، إن شاء قلبهم وصرفهم سبحانه وتعالى، فأنت إذا بقيت على الإسلام فقد نجحت وفلحت وفزت ورب الكعبة، قال: توفني مسلمًا، فيوسف -عليه السلام- يقول: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾، وهنا قال: من الملك، ولم يقل: الملك كله؛ لأنه لم يحكم إلا مصر فقط، كذلك لم يعلمه تأويل الأحاديث كلها بل علمه كثيرًا منها، وإلا فالعلم المطلق للواحد الأحد جل في علاه، فاطر السموات والأرض هو الذي أبدعها وأنشأها جل في علاه.